قيم في الفن

بقلم يحيى الدين محمد

لماذا نصدف عن منظر قبيح في الطبيعة . . ولا نرغب عنه وهو على لوحة مرسومة ؟ باعتقادي ان المنظر المرسوم لا يجسم القبح الذي نراه في الطبيعة ، فهو قبح أو شوهة ناقصة ؛ فمنظر جرح ملطخ بالدم على ذراع رجل مثلا في لوحة مرسومة لا يهزنا كما تهزنا الحقيقة . . لأن اللوحة قاصرة عن تمييز الشوهة كما في الجسم الحقيقي : نستطيع شم العفن منها ، ونستطيع لمس اللزوجة الحارة للدم ، ونستطيع التحديق في الجرح الفاغر الرطب ، ولكن هذا الصدق الحق ينتفي فوراً عن المنظر المرسوم مكونا وهماً عن جرح . . فالفرق بين اللوحة والحقيقة هو (الوهم) الذي يخلقه المتذوق للأثر . . الوهم غير الحقيقي والذي لا يستطيع التعبير عن الحقيقة نفسها ؛ فاذا استطاع الفن أن يجسم لنا الجرح كما هو : بقرفه وإشعاره لنا بالغثيان . . إذن فقد استطاع أن يبلغ الحقيقة . ولكن « الكاميرا » تستطيع أن تصور جرحاً يغثينا ويشعرنا فعلا بالقرف . . فالكاميرا تنقل الطبيعة ، ولكنها لا تعطينا الوهم الذي هو الفن . إن الكاميرا تصور الحادث كما هو ولكنها لا تمنحنا وهم الفن . .

غير أن الفن ليس تعبيراً عن حقيقة الحياة كما هي ؛ إنه زلفى للحياة . . تقرب واضح لاشعارنا بدفقة الدم والشعور . . فمن هذا التقرب تخرج المفاهيم المتعددة بتعدد الأذواق . . فكلنا يستطيع تشكيل وهم للحياة — وهم خاص حسب فهمه الخاص ولكنه ليس هناك وهم نبادله بالحياة . إننا نصور أشخاصاً قريبين للحياة . . فهناك ملايين التصورات عن (الملك لير) وليس هناك تصور يماثل الآخر بالدقة والنمط . .

الفن ليس غاية . إنه طريقة في الحياة ؛ فكما ان الحداد صانع والنجار صانع فان الفنان معبر ، وما هو الفرق الحقيقي بين وهم المقعد في ذهن النجار ، وبين وهم (حاملة الماء) في ذهن (جويا) ؟ ان لكليهما طريقة ما في الحياة ، وسيلة تعبيرية تمتاز بالجدة الدائمة والتطور المستمر . . فليس معقولا ان المقعد المرصص قبل ألف عام يماثل صورته الآن ، وبالتبعية لا نستطيع مقارنة « بيانو كونشرتو » لموزار . . بـ « بيانو كونشرتو » لرحمانينوف . .

الفن نتيجة أثرين : العالم الخارجي ، والعالم الداخلي . . . فلا نستطيع القول بأن أثراً ما « لاليوت » أو « لورانس » — بما فيهما من زعقات داخلية — يصور عالماً ناقصاً ، لأنه ليس هناك وعي باطني إلا بتأثير عالم خارجي ، فليس معقولا ان يخلق « بروفرك » هكذا من العدم ، بلا وشاية خارجية ، فهو موجود بصلعته المضيئة ونفسيته المتضائلة بتأثير الجنس . . وحتى (هاملت) الخامد الذي يفزعه ظل على الجدار فانه لا يمثل ترددا باطنياً بحتاً ، وإنما تؤثر به امتدادات خارجية يظل نهباً لها حتى يجندله السم . .

فالآثار التي تقول بأنها صدى للنفس الداخلية يثبت بقليل من الادراك الصافي انها متداخلة في الحياة الحسية . . وكذلك يمكننا القول بأن الآثار التي يغلب عليها نقل الخارج كما هو ، عند « زولا » ومعظم الطبيعيين ، أعمال تمتاز بالدفقة الداخلية العميقة . . فما هو المغزى الذى تدفعنا اليه بغي مثل (نانا) . ؟

فمن خلال أحداث الكون العادية المحايدة يتكون الرشح البطيء . . ذو المغزى والعمق . . فان « زولا » حين يتحدث عن ازقة (باريس) الموحلة وعن نساء الليل المريضات بالزهري ، وعن الشباب الذي أنهكه السل ، والذي يقف مدخناً في رقع المصابيح الملتهبة ، وحين يجبرنا في عزم ان نشم معه عفونة الزقاق ونتنه ، لا يتركنا هكذا معلقين . انه يدلنا على الاثر الذي يجب ان نستدل به بدون ضلال . وهكذا فانه يشرك المتذوق معه . . انه يبين له الحادث وعليه ان يغوص في العمق المختفي — في وهم الحياة المرهص — كي يجلب المعنى . . . انه ليس (كاميرا) تكتفي بنقل مشاهد الطبيعة الجافة الخامدة . ان الكاميرا تصور عاهرة تموت :

انها تجسم اللحظة المعينة التي تنتهي فيها هذه الحياة الدافقة . انها توقف الزمن بالنسبة للعاهرة (بعكس دوريان جراي) ، فليس ثمة تكتكات مستمرة الا في واقع المتذوق ، فهو يجد — للوهلة الاولى — تناقضاً بين الواقعين ، فليس صورة الكاميرا حقيقة بقدر ما هي تحايل . . . فما هو معنى كون متوقف من زمن معين ؟ ان معناه جمود الحياة . . . موتها . . . عدم

تجاوبهـــا مع الزمن المستمر من دفقات مهولة . ان الكاميرا تجمد التتابع الدائم وتحيله في لحظة جهداً ثابتاً . حركة توقفت فكأنها « ميديوزا » ساحقة ..!

ولكن فن الطبيعيين لا يجمد الحادث كما تفعل الكاميرا ، ولا يجري المشاهد كما في الطبيعة وحسب ، بل يدفع خلالها مغزى المزقة العفنة التي ينضح منها سم السموم ..

الفن اضافة داخلية لحدث خارجي ... ان بعض النقاد يعيب على (كافكا) ذاتيته اللاصقة به.. أفتريدون ادباً يصدر عن فرد .. ثم هو لا يعبر عن فرد ؟ !

ان الذاتية عنده تعني قمة مذهلة .. تعني ان فنه قد انتهى الى الاشراق الذي يبحث عنه الاديب .. فالفرق بين تخبطات (كامو) الوصفية في « وقفة وهران » وبين استاذيته الخارقة في « الغريب » هو فرق بين غلبة التأمل التجريدي على وصف الترغيبات السطحية للمنظور ..

ان (كافكا) يعبر عن مجتمعه حين يتكلم عن بشر قتلهم السأم في الكون الغريب .. انه يخلق من العبث الذي يحتوينا انتكاساً عليه بوعيه. اننا ندرك الرهق الذي نغوص فيه حين يطلعنا كتّاب أحسوا المشكلة ذاتياً ...

ومن خلال الاحداث الجارية (لجوزف ك.) ينتفض المعنى المقلق في اذهاننا عن انسان قتله العبث والغموض ... ان (كافكا) يجرنا للمشكلة رأساً بلا ايماءات منه..

وكذلك فان جهداً صغيراً من « جاليفر » يكفي كي تتقطع كل الحبال التي ربطه بها رجال دقاق ... وجهده هو عمل المتذوق الكسول الذي يبرم بالصنعة المحتاجة أناة خاصة ، فهو يحمل على الرمز لأنه لا يستوعبه، وهو يسهم بجهد خارق في قتل كل المحاولات الضخمة التي يسعى بهـــا مفنون لفهم تناقضات هذا الكون .. التناقض الذي يبرزه (كافكا) بعناد..

وكذلك فان (إريك ماريا ريمارك) فردي ذاتي تشغله المشكلة فلا يزعق طالباً الحلول ومذكراً بالنتائج .. إنه يقف في هون مشيراً بيده في بطن الحدث، والغاً بأمعائه .. مطالباً المتذوق أن ينفعل معه.. أن يدرك العمق..أن يسهم بابتداع أقيسة وادراكات جديدة .. أن يشارك الفنان بالتفكير .. فليست مهمة الخالق أن يجلي المشكل ، إن عليه مهمة الخلق وحدها .. أما عمل المتذوق فهو إتمام عمل الفنان وإحكامه ..

الأثر الفني لا يحتاج جمالية خاصة : ولكي يكون أثر ما جميلاً يجب أن يكون حقيقياً بمعنى أن يصدف عن التزويق والتجميل ، وان يترك « مصباح علاء الدين » الذي يحل له كل معقداته والذي هو « القدر » : الدمية القادرة على كل شيء في فننا العجيب .. فهو الذي يفكك الحوادث وهو الذي يربطها في نزق سخيف ، وبإمكان خارق ..

على أننا قد نتصور أثراً ما كان كل جهد مبدعه أن يشكله جميلاً يتفوق .. فأفروديت الالهية كاملة النسب الجمالية ، ولكنها ليست حقيقية ..! إنها متخيلة لا تصمد ثانية واحدة أمام (مفكر) رودان .. إنها تنسحب بزراية لتموت . ذلك لأن (المفكر) حقيقي و (أفروديت) خرافة ..

إنها تدهشنا وتستهوينا .. ولكنها لا تحظى باحترامنا .. برغم تلك الأناقة فيها ..

الفنان لا يرهص أثره لفرض جمالي بحت : انه يتكلم عن طحالب البحيرة..أو عمق السماء أو سكينة الوديان:.فيسكب كل نبله النفسي في أثره الحقيقي.. يتحدث عن النجوم والنساء والربيع .. الحب والبطولة على أنها أعراض موجودة حقيقية .

ولكن (أوتيللو) لا يهز فينا حاسة جمالية لانه يروعنا بصرخاته المليئة بالغيرة .. فالآثار التي تتحدث عن عواطف خسيسة، محرومة من الجمال، ولكنهالا تسقط من حساب الفن. إننـــا لا نهمل (أوتيللو) أو (الملك العجوز)(١) . إنها يمتلئان حينئذ بالحياة .. إنها يهزان فينا شعورنا بدقة الوهم .. وكلما كان وهم الشخص ضبابياً كلما عظم الأثر قيمة .

وكذلك نستطيع أن نعد كمال الآثار المشهورة بطابعها الآسي والعنيف معبراً عن روحها لأنها حقيقية .. ولأنهاتعطينا وهم الحياة المستبدل ..

ولماذا لا يؤثر فينا سجن (فابريس) (٢)، كما يهزنا بعنف سجن (بافل) (٣) .؟ إن (فابريس) ليس جاداً .إنه يهوشنا كما يفعل فارس إسبانيا الهزيل بطواحينه .. يملأ الدنيا بصراخه في فردوسه ذي القضبان .. ويعشق حتى الوله ابنة السجان ، ويرسل الاشارات البعيدة لحالته الجميلة .. سجن غير محكم .. بعيد عن الصدق .. بعيد عن سجن الظـــلام .. سجن إناء الافراغ .. والجدران السود التي امتلأت بالصلوات والأدعية

---

(١) لوحة للمصور Roualt .

(٢) بطل (ديربارم) لستاندال

(٣) الأم لمكسيم جوركي

والشتائم .. سجن العفونة والرطوبة: السجن الحقيقي.. وهكذا يأسرنا الصدق مهما تفه .. ويثيرنا الافتعال مهما غزر ..

الفنان ينتج أثره بدافع واحد : الرغبة في التعبير .. فلو كان الأثر المنتج متأثراً بدافع آخر ، لوضح تواً .. كما تتضح آثار (جوركي) الزاعقة بالاصلاح : لقد عبر (جوركي) عن مجتمعه المريض مادياً لأنه يريد له تقويماً .. فالاصلاح هو مطلبه ، ويعده بعض النقاد داعية أكثر منه أديباً ..

والرغبة في التعبير تدفع الفنان لاتخاذ حيطتين: فإذا كان الموضوع خاصاً بناحية جمالية صرفية : إنشائية أو بلاغية فإنه يجهر بالافتعال الذي يدفع الصنعة بقالبه الذي لا يُرد. اما إذا كان الاثر حقيقياً فهو لا يعنى بانتقاء قيم جمالية أو تزويقية.. ويكون طابعه الصدق الخالص .والضرورة التي تدفعه لتحري الحقيقة المبدهه هي التي تفرض نتاجه على الأذهان فرضاً ساحقاً .. ولكن أيُعد واجباً اكتفاء الأثر بالصدق ليكون كاملاً ؟!

الواقع أن آثاراً من اشد الآثار الفنية بُعداً عن الحقيقة خالدة خلوداً عجيباً ؛ فكل هذه السنوات تنصرم وما زالت « الكوميديا الالهية » تحتل مكانها الفني بالصدارة ، وحتى « لافونتين » الذي زعموا موته الأدبي ، لم يزل صامداً هو ورفيقه « كريلون » . إن الذي يدهشنا ليس وجودهما البحت ، بل تجددهما المستمر . انهما يتطوران معنا كما يتطور (الديكاميرون) . فحيثما توجد نساء وحب ، فهناك (بوكاشيو خبيث ، يهيء وينظم حبائله الشريرة بأصابعه النارية .. ولكن ما الذي يهزنا حقاً في هذه الأعمال ؟.

أعتقد أنها تعبر عن حالات موجودة بمجتمعنا الحديث ، وها قدمرت السنوات ولم يختف التردد في هاملت. ولا القدر في (أوديب) . ولا الشر في (فاوست) .. وواضح ان معظم مآسي الحب (كأدولف) و (ڤرتر) تحتفظ بمكانتها لأنها حدث متكرر دوماً .. تعيش كما تعيش (مرتفعات وذرنج ومانون ليسكو ورسالة من مجهولة) : التي أحسبها تخلد مدى الدهر ..

الصدق لازمة للاثر الفني، فأعمال خالية منه يتوفر فيهاشيء آخر : صنعة مجلوة ، حدث خرافي .. حب عجيب .. طرافة مسلية ..

ولكنها لا تمس الحدث العادي السائد في حياتنا المعاشة . إنها تفتش عن الغرابة .. تعنى باللمعة الوضاءة ، ولا تعنى بالذبالة الصادقة .. وهناك أثر حقيقي وجميل .. عُني بصنعته وبحقيقته كحلبة السباق (لديجا) و « فنلانديا » (لسيبيليوس) و « أناكارنينا » لتولستوي .. وهي قمم عظيمة خالدة ما عاش البشر .. وكذلك فان جهد الفنان الضافي لاستخلاص الحقيقة وتطعيمها بالصنعة الفنية هو الذي يكاد يصل بالأثر الفني إلى الخلود التام .. فان (أوليمبيا) مانيه خالدة ، ولكن (الطاحونة الحمراء) للوتريك أخلد ..

الفن يتأثر بالمجتمع ، ثم يؤثر به .. فمن أغاني شعراء الطريق وأناشيدهم المتفرقة تجمّع ذخر (هومير) في إلياذته وأوذيسته.. ثم أثرتا بدورهما في شعراء القرون التالية برمتهم..ومن رقصات القوزاق وأغانيهم تجمّع لدى « مسورسكي » و«بورودين» نبعاهما الصافيان ، وتأثر بهذين العملاقين أساتذة معاصرون « كبرو كوڤياف وخاتشاتوريان » .

الفن تكوّن بطيء يجري بأغوار المجتمع ، لا يكتشفه إلا العبقري المجدد.. يستخلصه من العمق الدفين للنفس البشرية .. على أن موضوعاً خرافياً قد يستهوينا بشدة (كالسندباد) .. ولا نستطيع نسبه للعالم المحسوس .. إنه يثير فينا استغرابنا.. بدهشنا .. ولكنه يحظى بسخطنا خلال هزئه بعالمنا. إنه يحيل المشاكل الجدية بقدرته الساحرة أكواماً من الممكنات السهلة تنساب من بين يديه . إننا نهرب من حياتنا القاسية حين نطالع (علاء الدين) :القدر طوعه ، وفي جيبه خاتم يحل له المشكلات وهو جميل كالعذارى .. خبيث كالشياطين .. وعلى الجملة فهو محاولة ساذجة لخلق (سوپرمان) شعبي ..

ليس هناك أثر فني ساقط . إنما هناك عمل يؤثر وعمل لا يؤثر .. والسقوط أو النجاح يُعزيان الى الاثر بالنسبة لفشله أو قدرته على التأثير..لا لعظمة خاصة أو تميمة سحرية تكمن فيه .. وإلا فما هو وجه الغرابة في حبنا (فالسكاف) وكرهنا (ياجو) .؟ إنهما يؤثران فينا .. لا يدهشاننا.. بل يؤكدان انفعالنا .. ومن هنا سر خلودهما .. على أن هناك « رؤوساً تستبدل » ١) و « أنوفا خارقة » ٢) لا تهز فينا إحساساً ولا شعوراً . إن عالم(توماس مان) لا يهزنا ولو أمطرت كواكبه الشياطين . إنه عالم خارق . غير حقيقي ..

---

(١) توماس مان

(٢ جان بول سارتر

ليست الغرابة هي التي تؤثر في انفعالنا بالفن ، فآثار من أشد الاعمال بساطة قد دُمغت بالخلود، ولكننا لا نستطيع أن نقول – بالتبعية – أن البساطة هي كل الفن ، على أن مشهداً يستطيل ليؤكد هذا الرأي : وهو اندحار (ثاكرى) و (براوننج) وأصحاب مدرسة التكثيف الفكري والتعقيد اللفظي ..

لا نستطيع تقنين الفن أبداً، ومن هذا يتضح تقلقل مركز النقد – فمفهوم اليوم الذي جهد النقاد حتى ثبتوا دعائمه ، قد يقذف به الى الطين خالق شاب بنظرة مغايرة ..

على أن النظرة العامة للفن تعمق غوراً على مدى السنين وملاحظة عابرة للموضوعات المرسومة أمس توضح المعنى : الصعود . الربيع . مريم المجدلية . عذارى باخوس !!

كانت الموضوعات تعالَج بسطحية تامة ، باهتمام فائق بالالوان والاضواء وقواعد المنظور .. ثم النسب الخارقة لتكوين الملائكة .. أما اليوم فيسهم «بيكاسو .. وڤيون..» بمعالجة العمق العميق من النفس البشرية ، وتضاءلت قيم الابعاد والامتدادات والظلال .. واهتُمّ بالبعد الزمني ، وبتكتيل الحركة نفسها خلال تثنيات الخطوط وانكساراتها .. إن الفن يصبح بشرياً .. يتجه للانسان .. ويترك الميتافيزيك ..

الفن لا يتوقف على قيمة .. فليس هو علماً . إن التصوير بالكاميرا علم : لانه (تكنيكي) بحت .. نستطيع ان نقننه : فيجب أن تكون في وضع كذا ، وعلى مسافة كذا .. وبسرعة كذا .. لكي تصور راقصة ما . ولكن هذه القيود تنتفي عند المصور الذي لا يُطلب منه سوى وضع اللوحة على الجدار..

إنسانية الفن هي القيمة الواحدة التي يهتم بها .. فقد ذهب الزمن الذي كان كل جهد الموسيقى فيه أن تطرب حتى الانتشاء أباطرة ودوقات يطعمون حتى الاكتظاظ ، وكان جهد الأدب فيه أن يصور .. وجهد التصوير فيه أن يُجمل الكنائس والكاتدرائيات ..

إننا نحتاج الفن البشري الذي يتحدث عن الشيء الواحد الذي يملأ هذا الوجود ..

وهو الانسان ..

القاهرة — **محيي الدين محمد**

ثورتنا.. هناك!

وانحرِ « الوحشَ » وخلِّ معصمي
راسفاً بالقيد ، نضّاحَ الدمِ
وتقحّم بطشةَ السفاح .... ها :
مصرع الاوغاد والبغي الظمي
ودع الاصفادَ تدمي قدمي
وعُرا الاغلال تحسو معصمي
يا اخا النخوة في صولتها
تتحرّى عن شظايا الضرم
انا منك اليوم أرعى منزفي
وأداويه بجمر البلسم
ولدى خفق ضلوعي صعقةٌ
هدهدتها نهشات الالم

***

ازف الموعدُ ، والدنيا لظىً
وقذيفُ النار رعّافُ الفم
ثورةُ التحرير منا انفجرت
ألقَ القربان ... للمعتصم
زمزمات الثأر في اصدائها
تتحدّى الهولَ بالويل الهمي
سوف نذروها غداً عبر السرى
جثة الباغي ونعش الصنم
تتفرّى جيفةً فوق الثرى
ويُساقي نتنها عرسُ الدم
نحن لبّينا الصدى فانتفضت
في ربى الشرق سرايا الحرم
ونداء البعث ... في أعراقنا
يتشهى عصفةَ المنتقم
وصديد الجرح أزكى عبقةً
من فحوح الورد ... للملتهم
كلما سحّت ضحايانا دماً
ناح والغربانَ ليلُ المجرم
فاسلمي يا ثورة المغرب لن
يستكين الحرُّ ، لا تستسلمي

بغداد — **علي الحلي**